معركة جبل عيسى بقبيلة حميان والقمع الاستعماري

د. عيسى قوراري

جامعة معسكر

بعد أن أوشكت مقاومة الأمير عبد القادر على الانتهاء بالمنطقة التلية، حاول نقل الأمير عبد القادر المقاومة إلي الهضاب العليا الغربية، حيث شاركت قبيلة حميان إلى جانب الأمير وكرد فعل على الدور العسكري الذي قامت به قبيلة حميان إلى جانب الأمير قامت قوات العسكرية الاستعمارية الفرنسية بقمع وبطش هذه القبيلة انتقاما على الدعم والمساندة للأمير.

لقد اهتمت السلطات الفرنسية منذ 1845م بقبيلة حميان وتاريخها حيث كلفت ضابطها بكتابة تاريخ حميان، وحياتها الاجتماعية وكانت أول دراسة حول حميان، هي دراسة الجنرال دوما (Daumas) في كتابة الصحراء الجزائرية ، وجاكو فليكس (Jacquat fèlax) في كتابة حملة الجنرال كافيناك إلى الصحراء سنة 1847م ثم النقيب نوال (Noël) في وثائق حول تاريخ حميان سنة 1915م

لم يتوقف دور قبيلة حميان عند مقاومة الأمير، بل ساهمت في ثورة أولاد سيد الشيخ سنة 1864م، ومقاومة الشيخ بوعمامة سنة 1881م وفي ثورة التحرير، وخاض أفرادها معارك ضاربة ضد قوات العدو منها معركة مارس 1957م بجبل عيسى.(معارك المجد. 2004: 115)

1/ لمحة تاريخية عن قبيلة حميان خلال فترة الاستعمار الفرنسي:

أ/ التعريف بقبيلة حميان أو حميدان:

هي قبيلة عربية هلالية، وحميان هو ابن عقبة بن يزيد ابن رغبة (ابن خلدون. 1981:40)، يصف أحد الجنرالات الفرنسيين في الجزائر شانزي Chanzy حميان بأنها قبيلة تمتاز بالفروسية والمغامرة والشجاعة، وهي من النوع الصحراوي غير متعصب ومستلب دو ديانة سهلة، لكن ليست إلى حد التعصب أساسا خاضعا لها، لكنه صعب التدعيم بالفعل الخارجي وروح القبيلة ليست سيئة نحو السيادة وسهلة القبول للحفاظ على القيادة مع توجيه أكثر للإدارة بالمراحل (شانزي. 1900:115) يستخلص من هذا النص أن الجنرال (شانزي) يريد أن يبين أن قبيلة حميان هي قبيلة سهلة الانقيادية والخضوع للسلطة الفرنسية، رغم ما تتميز به من خصائص كالشجاعة والجرأة (توفيق المدني. 1928:130)، وتضم قبيلة حميان عدة فروع، حميان شفاعة وحميان الجنية (Daumas. 1845 :255).

ب/ ظروف قبيلة حميان خلال فترة الاستعمار الفرنسي(1830- 1954):

تعتبر قبيلة حميان قبيلة بدوية، تتميز بالترحال والتنقل وبعدم الاستقرار بحثا عن المراعي والماء، مما جعلها تصل أحيانا إلى ما وراء الحدود الغربية إلى عوينات الدياب بأراضى المملكة المغربية(Noel.1915:138)؛ وتعد من بين الاتحادات القبلية الكبرى في منطقة جنوب الشط الشرقي بالهضاب العليا الغربية الجزائرية إلى جانب قبيلة العمور وأولاد سيدي الشيخ (Djillali sari.1981 :28) .

ولما نقل الأمير عبد القادر مقاومته إلى الصحراء انضمت قبيلة حميان إلى المقاومة، ولعبت دورا بارزا فيها بعد أن رفض أولاد سيدي

الشيخ الوقوف إلى جانب الأمير عبد القادر. ونتيجه مشاركة قبيلة حميان إلى جانب الأمير تعرضت لبطش وقمع الاستعمار الفرنسي بعد أن توغلت قواته في منطقة الهضاب العليا. ولما توغل الفرنسيون نحو الجنوب، وعاقبوا قبيلة حميان لاستقبالها الأمير عبد القادر، وسلبوا منها زيادة على 400 رأس من الغنم التي أخذت منها سنة 1846 (أندري بريتان وآخرون. 1984: 267) و33 ألف و500 جمل، والخيل والخيام، وألقوا القبض على عدد كبير من الرجال وذلك في 1847/01/13م (Jacquot Félix،1849: 284). وبعد مقاومة الأمير عبد القادر شاركت قبيلة حميان في ثورة أولاد سيدي الشيخ سنة 1864 ، وفي مقاومة الشيخ بوعمامة سنة 1881 ثم في ثورة التحرير الوطني سنة 1864م.

2- القمع الاستعماري وأساليبه:

- سياسة الاستعمار الفرنسي المتمثلة في المراقبة المستمرة لأفراد قبيلة حميان وحركتهم من خلال مراكز المراقبة التي تم تنصيبها في المواقع الحساسة وهي عين بن خليل والعريشة وعلى الحدود الغربية .

- سياسة التعامل برخصة التنقل التي فرضها الاستعمار الفرنسي على قبيلة حميان التي أدت إلى الحد من تحركاتهم وتنقلاتهم باعتبارهم بدو اعتمدوا البحث عن المراعي والماء.

- مد الأسلاك الشائكة والمكهربة وزرع الألغام المضادة للأفراد والدبابات عبر الحدود الغربية في إطار مخطط شال وموريس.

- اعتقال القوات العسكرية الفرنسية لأفراد القبيلة في السجون خاصة سجن جنين بورزق، أو على مستوى سجن الثكنة بالمشرية وذراع العود ومراكز الاستنطاق والتعذيب. وأدت كل هذه العوامل بأفراد القبيلة من

المجاهدين إلى رد فعل انتقاما من العدو وتجلى في تحطيم الجسور الموجودة بالطرق الرئيسية لشل حركات القوات العسكرية الفرنسية خاصة الطرق التي تربط بين شمال الهضاب العليا الغربية وجبال الأطلس الصحراوي .

- تخريب الطرق الفرعية التي تربط جهات الناحية والقسم.
- نصب الألغام المضادة للدبابات على طول خط السك الحديدية التي تمر عبر الهضبة التي تقع بالقرب من سفح جبل عيسى من الجهة الغربية لمنع وصول الإمدادات للجيش الفرنسي.

3- مراحل المعركة:

أ/ معركة فبراير 1957:

لقد سبق معركة جبل عيسى التي خاضها مجاهدون من قبيلة حميان بمعية مجاهدين آخرين من جيش التحرير بنصب كمين للقوات العسكرية الفرنسية بقيادة قنعود العربي الملقب بيحي، حيث استغل جيش التحرير الخروج المنتظم للقوات العسكرية الفرنسية من مركزها لمكاليس المحاذي لجبل عيسى، ووقعت الاشتباكات بين الجيش الفرنسي وجيش التحرير ليلا وأسفرت عن قتل سبعة جنود للعدو، وإصابة أربعة جنود آخرين بجروح بليغة، وتدمير آلية مصفحة من نوع افتراك بواسطة نعم مضاد للدبابات، وبعد انتهاء الاشتباكات، انسحبت قوات جيش التحرير إلى جبل عيسى، وجرت هذه العملية العسكرية في منتصف شهر فبراير سنة 1957م .

ب/ رد فعل الاستعمار الفرنسي :

حاول الاستعمار الفرنسي الرد علي هذه العملية المسلحة التي قام بها جيش التحرير، حيث قام بعمليات استطلاعية، وضاعف من تحركاته للقضاء على المجاهدين الذين نفذوا هذه العملية المسلحة.

وكعادته قام الاستعمار الفرنسي بقمع السكان المدنين البدو ظنا منه أنهم كانوا وراء هذه العملية، فقام بحرق ممتلكاتهم، وترهيبهم لمنعهم من التعاون مع قوات جيش التحرير. وقامت بتمشيط المنطقة بحثا عن المجاهدين، الذين نفذوا الكمين لقواتها بمنطقة مكاليس واستنفرت كل قواتها للانتقام من قوات جيش التحرير المتواجدة بالقرب من مركزها العسكري (معارك المجد. 2004:115)

4- نشاط جهاز الاستعلامات التابع لجيش التحرير:

كانت قوات جيش التحرير في جبل عيسى تدرك أن القوات العسكرية الفرنسية سترد بعنف، واستخدمت مصالحها السرية المتمثلة في جهاز الاستعلامات والرصد لمعرفة إستراتيجية العدو التي سيتبعها لمواجهة جيش التحرير. واستطاع مولاي الجيلالي أحد أعضاء جهاز الاتصال من جمع معلومات دقيقة عن تحركات القوات العسكرية الفرنسية، حيث بعث بعضو من نفس الجهاز إلى قيادة جيش التحرير بالناحية الثامنة قصد إبلاغها بما يجري من استعدادات لقوات العدو، فانكب المسؤول العسكري للقسم الرابع المجاهد قرنا طي جمال الملقب يمقران على تحليل هذه المعلومات، وأخبر قادة الكتائب والفرق المتواجدة بجبل عيسى بالمستجدات، وذلك لأخذ الاحتياطات الضرورية لمواجهة أي هجوم محتمل.

وبناء على المعطيات التي وصلت إلى قوات جيش التحرير، وضع المسؤول العسكري وقادة الكتائب ومساعد يهم خطة لمواجهة قوات العدو، وفي غياب تصور عن خط سير القوات العسكرية الفرنسية بالتحديد تبنت قيادة جيش التحرير إستراتيجية في عمق الجبل تتمثل في نشر قوتين على الأطراف، في حين أن القيادة مدعمة بمفرزة الحراسة تمركزت وسط القوتين لتسهيل عملية الاتصال ومراقبة القوتين وتوجيهها حسب خطة العدو. و في الوقت الذي كانت قيادة جيش التحرير تعد العدة، أمرت دوريات الرصد والاستطلاع للقيام بعملية استطلاع في المنطقة، واتفقت قوات جيش التحرير على كلمة السر و هي الشيح، العرعار وت 3333 لجميع عناصر جيش التحرير المتواجدة بجبل عيسى.

لقد اكتشفت إحدى الدوريات في ليلة 4 مارس 1957م التي اتجهت نجو رصف الكحلةً من مشاهدة قوة عسكرية للعدو تتشكل من طوابير من الشاحنات والآليات العسكرية قادمة من مدينة عين الصفراء باتجاه المشرية، فأبلغت هذه الدورية وبسرعة فائقة قيادة جيش التحرير بجل عيسى فأعطت القيادة التعليمات النهائية برفع حالة الاستعداد والتمركز الجيد عبر مواقع الجبل وهذا قبل طلوع النهار.

وفي صباح 4 مارس 1957 قامت الطائرات الاستكشافية للعدو بمسح المنطقة، وطائرات الدعم والاستطلاع من نوعً ت، سً وكان عددها أربع طائرات، قامت هي الأخرى بعملية المسح الشامل الدقيق لكل جهات جبل عيسى والمناطق المجاورة له، حينها تأكدت قوات جيش التحرير أن القتال مع العدو أصبح أمرا مؤكدا. (اندري برينان واخرون. 1984 :267)

5- بداية المعركة :

في الوقت الذي كانت قوات جيش التحرير في حالة استعداد وترقب، حتى شاهدت القوات العسكرية الفرنسية تتقدم وبشكل مكثف من الجهة الغربية، ولما وصل الإرسال الأولي إلى سفح جبل عيسى أخذت تتباطأ في الصعود، واتبعت أسلوب التحرك المبعثر والانتشار عبر المساحات الواسعة حتى تستطيع القيام بمسح شامل للمنطقة، وبعدها اتضح لقوات جيش التحرير أن الأمر أصبح حقيقيا وأن القتال أصبح أمرا واقعيا.

ووصلت قوات العدو إلى سفح الجبل في حدود الساعة الثامنة من يوم 4مارس 1957 وبدأت في التوغل إلى عمق جبل عيسى، واقتربت من قوات جيش التحرير، حينها بدأ القتال بين الطرفين بالقرب من كتيبة القسم الرابع واشتد القتال واتبع المجاهدون أسلوب المفاجأة، واستغلوا ظرف الموقع مما جعلهم يلحقون خسائر بشرية في صفوف الجيش الفرنسي. واتسعت رقعت المعركة لتشمل باقي مواقع المجاهدين لأن قوات العدو أرادت توسيع نطاق عملياتها العسكرية وضاعفت من قصفها، وعلى الرغم من شدة المعركة، إلا أن قوات جيش التحرير التي تقودها عناصر من قبيلة حميان تصدت ومنعت الجيش الفرنسي من التوغل على مستوى جبل عيسى، وبقي المجاهدون صامدون في مواقفهم للدفاع عنها، واستغرقت مدة المعركة ساعتين على حد قول المجاهدين الذين شاركوا في هده المعركة.

ولما تأكدت قيادة الجيش الفرنسي أن اختراق الجبل صعبا على الرغم من ضخامة عددها وعدتها، فقد أعطت الأوامر لقواتها بالانسحاب والتراجع للخلف، وسمحت للقوات الجوية بالتدخل حيث قصف الطيران

الحربي مواقع جيش التحرير بمئات الأطنان من القنابل. وقدر عدد الطائرات التي قامت بقنبلة مواقع جيش التحرير 18 طائرة مقاتلة من نوع ب26، والطائرات النفاثة، وطائرات من نوع ت.س في طلعات متواصلة حتى خفت حدة القصف في منتصف نهار 4مارس 1957.

وخوفا أن تقع قوات جيش التحرير في فخ الحصار، استغلت توقف القصف الجوي للجيش الفرنسي، لتغير من خطتها العسكرية لكي تتكيف مع ما يحدث من تطورات على صعيد جبهة القتال، وذلك بإعادة انتشار بعض فرق جيش التحرير في مواقع جديدة لتوسيع نطاق المعركة وتشتيت جهود قوات العدو، حتى توحي له بأن المجاهدين يسيطرون على جميع أنحاء الجبل، وفي الوقت الذي كانت قوات جيش التحرير تغير من مواقعها، بدأت القوات الاستعمارية بشن هجوم ثان مستخدمة مدفعية الميدان، وذلك لقصف الجبل وأيضا من مركزها بالخنقوات، وبعد القصف الجهنمي شرعت القوات البرية في الزحف على عدة محاور بأعداد هائلة وخاصة من الجنوب والشرق.

وتصدى المجاهدون لهذا الموقف بكل شجاعة، وتمكنوا من إلحاق خسائر كبيرة في صفوف العدو بين قتيل وجريح مما دفع بقوات العدو إلى الزيادة في وحدات الميدان، وأصرت على مواصلة المعركة حتى استطاعت الوصول إلى عمق الجبل. وفرض هذا أيضا على المجاهدين تكييف وضعهم مع ما استجد من تطورات لمنع العدو من تحقيق أي انتصار يعيد الثقة للجنود الذين استولى عليهم الخوف وتمكن منهم الرعب نتيجة لخسائر المواجهات التي وقعت في اليوم الأول من المعركة. (من معارك المجد. 2004:121).

وفي هذا الإطار، وتنفيذا لخطة المواجهة الجديدة قامت كتيبة القسم الرابع بترك مواقعها السابقة والتحرك على شكل أفواج نحو مواقع تقع أيضا في عمق الجبل تعرف بقرن عيسى؛ بحيث يسمح لها بمراقبة كل الأراضي الواقعة غرب الجبل، وبالتالي التصدي للقوات القادمة منها، كما قامت بالتمركز من جديد في مكان يعرف بقرن بن حمى.

أما العدو، فقد استغل الليل ودعم قواته بوحدات إضافية ثم دفع بها في عمق الجبل على غير عادته، وتوصل بعد عناء إلى احتلال مواقع المجاهدين التي كانوا بها خلال اليوم الأول، واستأنف القتال منذ صباح اليوم التالي بوقوع العدو في كمين نصبه جنود القسم الرابع واشتعلت المنطقة من جديد، واستمر القتال بصورة متفاوتة طول اليوم إلى غاية الليل. لقن المجاهدون للعدو درسا قاسيا في فنون الحرب على الرغم من أنه استطاع بعد دعم قواته بوحدات جديدة من تطويق المنطقة وإحكام الحصار حولها. الأمر الذي جعل قيادة جيش التحرير تقرر لاعتبارات إستراتيجية عدم المغامرة والاستمرارية في المواجهة في ظل ظروف غير مأمونة. فقامت بسحب وحداتها من الميدان باختراق القوة والانسحاب نحو جبل مرغاد الواقع إلى الغرب من ميدان العمليات كما اختفى عدد قليل بالجبال. (من معارك المجد . 121:2004)

6- نتائج معركة مارس 1957 :

انتهت معركة جبل عيسى ما بين 4 و5 مارس 1957، حيث تكبدت فيها قوات الاستعمار الفرنسي خسائر فادحة في الأرواح، وبلغ عدد القتلى 500 عسكري فرنسي، وتم إسقاط وتدمير طائرة من نوع ت بس بجبل بوالكرش. أما جيش التحرير، فإن عدد الشهداء بلغ شهيدا

واحدا؛ وهو ًمعروف الطيب ًمن الناحية الثامنة وإصابة خمسة مجاهدين بجروح مختلفة؛ وهم بورقية جلول وهو قائد فرقة، ومرابط الحبيب ودحاوي محمد، وسليمان الدين ونواري عبد الحفيظ، وللإشارة، فإن هؤلاء المجاهدين هم من قبيلة حميان.

وتعود أسباب قلة الخسائر في صفوف المجاهدين في هذه المعركة إلى معرفة المجاهدين الجيدة للأرض ومسالكها الوعرة، بالإضافة إلى التمركز الجيد والانتشار المناسب في مختلف المواقع الإستراتيجية بالمنطقة وتوفر الموقع على الغابات والصخور والمغارات. بالإضافة إلى اكتساب قيادة جيش التحرير على مستوى الناحية خبرة في ميدان القتال، ومعرفتها بأساليب وخطط العدو، وارتفاع معنوياتها وتميزها بالشجاعة وروح التضحية، وتأكد للعدو على أنها في مستوى التحدي.

خاتمة:

لقد عانت قبيلة حميان من قمع وبطش الاستعمار الفرنسي كبقية قبائل منطقة الهضاب العليا الغربية، ومع ذلك لم تكن منعزلة عن الأحداث الوطنية، بل ساهمت بدورها في المقاومات المسلحة التي شهدتها المنطقة، وخاصة في ثورة التحرير. حيث شن أفرادها بمعية مجاهدين آخرين عدة معارك منها معركة 5 مارس 1957م؛ التي كان فيها بعض من أفرادها قادة فرق وكتائب والحقوا خسائر فادحة بالاستعمار الفرنسي سواء في الأرواح والعتاد. وللإشارة فان أسماء قادة الفرق والمجاهدين الذين تم ذكرهم في متن الموضوع هم من أفراد قبيلة حميان.

لقد سبقت معركة 4- 5 مارس 1957، معركة فبراير1957، وعلى الرغم من أن المنطقة التي تستقر بها قبيلة حميان منطقة سهلية قليلة

الجبال لا تسمح بتنفيذ عمليات عسكرية، إلا أن أفراد من قبيلة حميان التحقوا بصفوف جيش التحرير في منطقة الأطلس الصحراوي وخاضوا معارك ضارية.

قائمة المصادر والمراجع:

أ- المصادر:

- ابن خلدون. (1981). كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج6. بيروت: دار العلم للملايين.

ب- المراجع باللغة العربية:

- أندري برلمان، أنوري نوشى، ايف لاكوست. (1984). ترجمة اسطنبولي رابح ومنصف عاشور، الجزائر بين الماضي والحاضر، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- توفيق المدني (1928). تاريخ الجزائر، الجزائر: الطبعة العربية.
- محمد مبارك الميلي. (1983). تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج2، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
وزارة المجاهدين. (2004). من معارك المجد في أرض الجزائر، دار هومه.

ج- المراجع باللغة الفرنسية:

Chanzy. (1900). les tribus et douars, communes d'Algérie.

Daumas. (E). (1845) : le Sahara algérien –études Géographiques statistiques et historiques –Alger.

Djillali Sari.(1981). L'insurrection de 1881-1882, SNED, Alger.

Jacquot Félix. (1849). L'expédition du général Cavignac dans le Sahara algérien en 1847, Paris, Gide et badry.

Noël, c .(1915-1916). Les documents pour servir à l'histoire de hamyan – BSGO.